

الخفافيش

للفقيهة الإنجليزية صامويل جيمس

بقلم الأستاذ أحمد خليل

فأجاب « أنتظر بعض الأصدقاء .
تواعدنا على اللقاء بعد الصلاة في الكنيسة »
وانتفت إلى بيت على طراز شبيه بالقوطى
خصص لسكنى الحيوانات الثديية الصغيرة ،
وقل لم لا ندخل ونلقى نظرة على الخفافيش
قبل أن تستيقظ ؟

فأجبت (أما أنا فلا ! إني أمقت
الخفافيش ، ويقتسم بدنى لرؤيتها) ولست
أدرى لم هذا ، ولكن الحق أن ذلك
الحيوان الوديع يثير في نفسى نفورا لا يعدله
إلا نفور الفيلة — وأقل منه نفور النساء
— من الفيران المسألة التي لا نضر ولا
تؤذى . وكراهية الفيل لصحبة الفيران
معروفة مشهورة تبلغ منه مبلغ العتة
النفسية ، فإذا هبط إلى عرينه فار انسابته
نوبة هستيرية من الخوف وارتمى في أحضان
أقرب - ارس والدموع تساقط من عينيه
ولا يهدأ له روع حتى يتم طرد الدخيل في

انتخبته منذ حوالى خمس سنوات
عضوا في الجمعية الملكية للحيوان ، ومن
ذلك الوقت وأنا أعتبر حديقة الحيوان مكانا
يصلح لأن يسرى فيه الإنسان عن نفسه ،
ويفيد منه ، إذا قضى به ساعة من صباح
الأحد حينما يكون الجو صحو ، ففي صحبة
الحيوان المقرض ترويح وترفيه لطيف ،
أو كما يقول مترلك بحق إن الإنسان كلما
زاد اختلاطه بأبناء عشيرته زاد إقباله على
سباع البحر

وفي صحبة الأحد الماضى لم يكن نعمة
بشيء ما يشغلنى ، فأخذت أجول في حديقة
الحيوان ، أستمتع بالنسيم العليل ، وأناجى
أصدقائى البكم ، إلى أن وقعت فجأة على
صديق قديم — برسى بيفن — لم أصادفه
منذ عهد الدراسة

« فقلت مرحبا : برسى ! ماذا تصنع

هنا ؟ »

غير رحمة ولا شفقة

ويجبل إلى أن الذي حدث منذ آلاف السنين أن قازا مرتاعا ضل طريقه إلى جحره امتداد ، ودخل خرطوم فيل ، وأوغل فيه ، وأسرف في إيذائه . وتناقلت الفيلة القصة المزعجة جيلا بعد جيل ، حتى صار احتمال وقوع مثل هذا الحادث أمرا يورقهم ويقض مضاجعهم أثناء الليل ، وبزعجهم ويشغل بالهم أطراف النهار . وتعلم الأطفال منهم في أحضان أمهاتهم هذا الدرس فتأصل في غرائزهم وجعلوا ينظرون إلى النيران نظرات مريبة بالخوف والفرع وإني أقر أني لا أخشى أن تقرب الخفافيش إلى خرطومي ولكني مع ذلك لا أستطيع أن أراها دون أن أحس بمثل نفور القيلة . ثم إنها تستثير إحساسا بسوء الطالع ، فعادة النوم والرأس متجه إلى أسفل والجسم يتدلى من السقف شي لم استطع قط أن أستيفه . وهناك عادة أخرى عرفت عنها وهي عادة الاشتباك بشعر الإنسان ، وإني أعترف أنني لم أسأف أحدا شكاً من خفافيش تكمن في شعره . وفيما يتعلق بشخصي فإني أستمع منذ عهد بعيد بحصانة كاملة تقني مثل هذه الكارثة ، فقد عبثت به السنين ولم ترك فيه مكانا يصلح عشا لخفاش

مصرف في القناعة والزهد ، وصار أشبه الأشياء بفناء مصفر للارتلاق

وعلى الرغم من ذلك كله فالخفافيش تشير في نفسي اشتزازا لا أقوى على إخفائه مهما فملت ، كما أوضحت لصديق ينفذ فقال وأنا أحاول أن أستدرجه في رفق إلى بيت الرواحف: جدا أنت غطى ثم استطرد بقول (فلا ريب أن الخفافيش والعناكب والبموض قد خلقت لحكمة إلهية تقصر أفهامنا المحدودة عن إدراكها . والله في خلقه شؤون) فقلت (نعم)

قلت: برسي (لقد كان لخفاش في حياتي شأن كبير ، وأظنني أخبرتك بقصته) فقال (إن كنت قد فعلت فقد نسيتها ، خبرني بها مرة أخرى فقال (حسن جدا . سأقصها عليك) وأخذ يسرد القصة فقال :

من ست سنوات خلت حينما كان عمري أصغر مما هو عليه الآن بست سنوات دعيت في شهر يوليو إلى أن أقضى عطلة الأسبوع في بالسام فرياري ، ذلك القصر الإنجليزي اللئيف الذي ينهض مثالا رائعا لفن المعمار في عهد إليزابت ، والذي لا يمد له في نخامته إلا القليل من القصور على هذا الجانب من المحيط الأطلسي . استأجر سير بورويك

حرصاً يحملها على استبعاد فكرة الزواج مني،
ولذلك ينبغي أن أعتبرها من تلك اللحظة
أختي العزيزة

تفطر قلبي للصدمة الأليمة ، فأنطويت
على نفسي ، وواريت أحزاني في غمرة اللهمو
والغيث ، وظللت زهاء ثلاثة شهور أنوحى
تجنب الحفلات التي يحتمل أن تحضرها
حبيبتي القاسية جوليا . ولجأه وصلتنى
الدعوة لزيارة بالسام فريارى فادهشتنى
وأقلت بالى . خفت أن أعرض قلبي الجريح
للعنة أخرى ، ولكنى كنت كالقراشة التي
ظالما ألقت الشعراء ، لا أقوى على البقاء
بميدا عن اللهب الجذاب طويلا ؛ ولذلك
وجدتني منساقا إلى الكتابة إلى السيدة
تراوت أعبر عن سرورى لقبول دعوتها . ولعل
بارقة أمل فى أحشاء قلبي جاشت فى صدرى
بلدت بالسام فريارى حوالى الساعة
السابعة من مساء السبت ، فوجدت جمعا
زائرا قد التأم فى قاعة فسيحة مغطاة الجدر
بجسب البلوط . وكان واضحا أن بعضهم
قد حضر فى موعد تناول الشاي ، إذ ران
على الحديث شئ من الفتور ، وأحاط
بالسيف بعض زملائى الصيوف يرمقون
بعين الملل صحفة كبيرة مليئة بالجمارين
يعرضها عوفى حماسه المعتادة التي لا تعرف
الكلل

تراوت عالم الآثار المصرية المشهور هذا
القصر فى تلك السنة التي أتحدث عنها لمدة
الصيف ، واعتاد هو وزوجته وابنته
جوليا استضافة جمع كبير من الأصدقاء من
السبت إلى الاثنين من كل أسبوع

وكان سير بورويك قد اعتاد أن يقضى
الشتاء فى مصر ، ينتقب عن آثار الفراعنة
الذين بالنوا جهدهم فى الاحتياط لمنع مثل هذا
السطو على كنوزهم ، وأمكنه بالتدريج على
نهب عدد لا حصر له من القبور جمع مجموعة
فريدة من الجمارين بصر دواما على أن
يعرضها على ضيوفه . ولم يكن يمنعنى من
قبول الدعوة إلى بالسام فريارى سوى
أمرين ؛ أن أرغم على مشاهدة مجموعة
الجمارين ، وأن أظل يومين فى القصر متهيئا
لقاء ابنته جوليا

وكانت جوليا تراوت فتاة رائمة الجمال
تفيض رقة وعذوبة ، ثم إنها كانت فوق
ذلك الوارثة الوحيدة ، وهذه حقيقة أقرر
فى إخلاص أنها كثيرا ما أخرجتنى . وقد
أخذت مدى عام أنتهز كل فرصة لأدلى إلى
جوليا برأى فيها فلا تقابل مديحى إلا
بالابتسام الساخر . وفى آخر لقاء كاشفتها بحبى
وصارحتها أنى لا أستطيع العيش بدونها ،
فطلبت إلى ألا أكون أبله وقت إنها تكن
لى أخلص الود ، ونحرص على صداقتى

رأسك « حين رأى رأسي يصطدم في عنق
بحلية خشبية متدلية في الباب ، وهي حلية
من تلك الزخارف التي تجعل بيوت اليهود دور
غير صالحة للسكنى .

فسأله مشيراً إلى نابوت كبير منطلي
بتمش من التيل المشجر في ركن من أركان
الغرفة . . . ساهذا بالله عليك ؟

— « لا شيء ، إنه خزانة ليس إلا »
قال ذلك وأخرج من جيبه مفتاحاً وفتحها
— خزانة ؟

— نعم خزانة ، أضع فيها جماري كل ليلة
وصحب الدول بالقلع « وتحفظ فيها زوجتي حليها
وبعض الآنية الذهبية . لا تقلق ، ولا تخش
الصوص ، فسينام بوتو معك » ثم أشار
إلى جبل يمتدني بحوار المدفأة وقال « هذا
تدير الحريق ، والجرس فوق السطح ، فإذا
جذبت هذا الجبل جاءك أهل القرية جميعاً
في دقيقتين . »

قللت ضاحكاً « إذن لن أقبل »
فقال « حسن . هاءنذا قد عرفتك .
عرفتك . والعشاء في الساعة الثامنة
والنصف والملابس بطبيعة الحال السمرة
السوداء . »

وعادرت الغرفة وأخذت أرتدى ثيابي
تأهباً للعشاء .
ولم يحدث في ذلك المساء شيء ذو بال

وانتخذ الجمع وصولي ذريعة للخلاص
من هذا الواجب المسمى . ورحبوا في نشوة
بالغة باقتراح الضيف أن يرشد كلا منهم إلى
حجرته . ونزلت السيدة تراوت وابنتها حوليا
إرشاد السيدات إلى حجراتهن ، وكانت
حوليا قد رحبت بي في رقة ودلال كما دأبها ،
دون أن تلم عينها عما في قلبها ، مما أذهلني
وأفلق بالي

أما سير بوروبك فقد جمع جمارينه
وطلب إلى ضيوفه أن يتعموه . وحينما اطمأن
إلى أن كل واحد منهم قد استقر في حجرته
التفت إلي وقال « أرجو المذرة يا عزيزي
بيفن ، فقد اضطرت في آخر اللحظة إلى أن
أقدم حجرتك لشقيق زوجتي — السكرتل
وترسبون المعجوز — الذي حضر على غير
انتظار »

فتمتمت بكلام عن قبول عذره
فاستمر يقول « لقد خصصت لك
حجرة نوم رئيس الخدم ، أما متنجز ففي
إمكانه أن يدبر لنفسه مكاناً فوق حظيرة
السيارات ، إلى على يقين من أنك سوف
تستريح »

« أنا واثق من ذلك »
ثم تقدمتني إلى حجرة صغيرة في الطابق
الأرضي تكاد تكون خلوا من الأثاث
وقال « هنا » وأضاف « حاذر أن تصدم

الابتسامة الغامضة التي طالما شغلت فكري
وأفلقني بالي

ولم يكن مضيفنا من أولئك الذين
يطيرون السهر ، ففي منتصف الليل رأى أن
نلجأ إلى فراشنا

وفي طريقى إلى غرفتي صرت أسائل
نفسى هل سأجد فى بوتو رفيقا ودعما حلوا
الشئائل كما تنبت مضيفتى ، وأخذت
أتصوره كلبا صغيرا مدلا يمت بصلة إلى قصيلة
أجنبية وعنيت ألا يكون من تلك المخلوقات
الفضيلة المادية التي تشبه البموض ولا تكف
عن التباح المديم الجدوى

ولقد ما عجبت حينما دخلت غرفتى -
بعد أن تعثرت فى درجتين غير ظاهرتين
وصدمت رأسى مرة أخرى بالباب -
وشاعدت كلبا ضخما أتراسيا من نوع
الولف تمددا فوق السجادة ورأسه بين
مخالبه وفي عينيه نظرة توجس ، ارتياح
ليست غير طبيعية إذا ذكرنا أننا لم نكن قد
تعارفنا بعد

فبدأت أدله بقولى : « هيه يا بوتو ! أيها
الرجل المعجوز ! » ولكن بوتو ظل مصما
أذنيه ، فلما اقتربت منه فى حذر هدر ثغاة ،
ورفع طرفا من شفته ليكشف عن أسنانه
الحادة العجيبة . على أنه فى الوقت نفسه
أدهشتنى كثيرا بأن هز ذيله فى هودة ،

سوى أنني أجلس إلى جوار جوليا فبلغ
من اضطرابى أنى لم أجدها أقول . وإلى
الجانب الآخر منها جلس شاب من ضباط
الحرس هولوردد مولا ريردج ، ظل ينازلها
فى تبدل احتقنى عليه . وبعد العشاء لعبنا
البردج فتكرر خطئى . ولم يكن فى وسعى
أن أركز انتباهى فى اللعب . وهكذا
فضيت سهرة أثيلة نعمة لم أعف منها إلا
حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف حين
أخذ السيدات ينصرفن إلى قراشهن .
وحينما بلغت السيدة تراوت أول الدرج
التفتت إلى وقالت « سوف تجد بوتو فى
غرفتك . إنه كلب ودع . إنه صديق جوليا
وستحبه »

فأجبت « سكر . ولكن لا داعى
للمع »
فقلت « لاتعب بالمره . إنه يشام هناك
داعا »

ثم التفتت إلى رئيس الخدم وقالت
« متعجز ، هل ذهبت بالسيد بوتو إلى
الخارج ؟ »

نعم ياسيدتى . قام بحولته بعد العشاء
- إذن فسيكون على خير مايرام . ليلة
سعيدة يا مسر يفرن ونوما هنيئا

- « ليلة سعيدة وأحلاما بهيجة »
كذلك قالت جوليا ، وعلى فيها تلك

بازدراء ، ثم أدركت من تحبط في الماء أنه يشرب من إناء موضوع بجوار حوض غسل الأيدي ، وتابع طوافه الصامت حتى بلغ الفراش ، وبعد لحظة سكون - كنت فيها أنفاسي متسائلا ماذا تكون الخطوة التالية - ففر فجأة في الهواء واستقر بكل ثقله على سائ

ولست سبالغا إذا قلت إن قلبي قد توقفت دقيقة ، فقد ملكني الرعب ، وذكرت القصص المتواترة عن وحشية الكلاب الأتراسبية ، ونوقعت بين لحظة وأخرى أن تنهال أنفاسه الدافئة على وجهي وأن ينشب أنيابه الحادة في عنقي

على أني بينت أن مخاوفي كانت أوهاما ، وظهرت نيات بوتو الطيبة ، وأخذ يتقلب بعض الوقت دافعا بي تدريجا إلى الحائط ، ووقفت في جوار ركبتني ، وشهد في رضا ، وتأهب للاستغراق في النوم

وكانت ليلة من ليالي يوليه الدافئة ، أضيفت إليها هذه الرغبة الطبيعية من الماء الساخن ، فانقطع كل أمل في النوم ، وبلغ من ثقل بوتو على الأغشية أن صار من المستحيل علي أن أبدي حراكا ، فأممت بأنني سأقضي ليلة مزعجة غاية الإزعاج ، وعانيت أكثر من أي وقت مضى لو أني بقيت بعيدا عن السام فرياري

وتلك حركة لم تبد متفقة تماما مع مقتضيات الموقف ، فقد كنت أعلم أن الكلب الذي يهدد يكشف عن سخطه والذي يهر ذيله يعبر عن غبطته ، أما أن يجمع بوتو بين الحركتين فذلك أمر شاذ بشير الحيرة والارتباك

وتذكرت النمل القديم عن ترك الكلاب النائمة وشأنها ، ورأيت عين الصواب في أن أترك الكلب النائم وشأنه ولو أن الكلب بالذات في تمام اليقظة

وانسحبت إلى ركن حصين من الغرفة وراء الخزانة ، وأخذت أغير ثيابي في سرعة وهدوء قدر الإمكان ، ولاحظت في أثناء ذلك أن بوتو ينظر إلى بعين الاحتقار المطرد ، وجهنا مسحت أسناني بالفروسة ونمضمت بدت في عيني نظرة أندهاش دلت على أن منتحز الوفي لم يكن من عاداته أداء هذه التراجيبات الليلية الضرورية . وأخيرا استلقيت على فراشي وأطفأت النور ، وتأهب للنوم

وتنهدت في الحال إلى أن بوتو قد نهض واقفا وأخذ يجول في الغرفة في غير مألوبة ، فقاومت كل رغبة طبيعية في النهوض والفتك بالمدو الزاحف ، وقنمت بتتبع حركاته المختلفة قدر ما وسعني في الظلام الخيم وخيل إلى أن أسمعه يفحص حذائي

كنت منتعز يخلصني منه . آسف أن
أبقتك . »

— لا تأسني أوجوك . إني أحب
أن أوقظ . ومع ذلك لما يستطيعه منتعز
أستطيع أن أفعله

— يكون لك فضل عظيم

والتفتت إلى كتبها وقالت « إليك عني
يا بونتو ! إليك عني ! » وكان الحيوان
الذي يحبها بشغف بالغ آثار إعجابي وعطفي
عليه

وأمرعت بارتداء ثوبي وخفي وبعثتها
إلى الطابق العلوي وبونتو في أترى واجترنا
ممرات معتمة حتى بلغنا غرفتها في الطرف
الآخر من القصر

ودخلنا الحجرة في غير ما جلبة ،
وأناق الباب خلفنا ، ولجئنا عن الخفافش
تحت « قيقا دون أن نمر به على أثر . وقالت
جوليا

— ربما كان مخبئ . وأعله أحسن
بندومنا .

— سوف يجده بونتو حالا
ولت ذلك أملا أن يماوننا ولسكنه لم
يخجل بنا ، واشغل عنا بإزاء فيه ماء ، وما
أظنني شاهدت في حياتي كلبا دائم الظمأ
مثل بونتو

وقالت جوليا « أظنه قد جثم فوق

وبعد مضي ساعة أحسست حجة وأنا
فيما يشبه الغيوبة أن بونتو قد استيقظ ،
وتحرك في قفلي وسمعتة يزوم في صوت
خافت ، وفي نفس اللحظة سمعت طرقا
خفيفا على الباب ، جلست وأضأت الغرفة
وقلت للطارق : « أدخل »

وفتح الباب ووقفت على عتبة جوليا ،
وفي يدها مصباح ، وعليها ثوب من الحرير
الصيني المزركش ، وفي قدميها حذاء من
الفراء ، يمدده سروالي من الحرير القز نفلي
اللون . والفرقة الثانية هذه الليلة توقفت دقائق
قلبي ، غير أنها توقفت من فرط السرور
المتراج بالدهشة

قالت « أو منتعز » ولحمتي فحاسة
فصدرت عنها مزرخة دهر خفيفة
فسألت « هل حدث شيء ؟ »

— ربي ! أنت ! معذرة . ظننت .
— أردت منتعز

— إنه يذم فوق حظيرة السيارات .
هل لي أن أفعل شيئا ؟

— الأمر وما فيه خفافش .
— خفافش ؟

— في حجرني .
— يا إلهي ! وماذا يصنع هناك ؟

— « يتخبط . ولكنك ترى أنني
لن تنقل لي عين والخفافش في الحجرة .

وقالت جوليا « لا بأس . إنه الحارس الليلي » وأخافت في بشاشة « مساء الخير يا باربر . الجو جميل . جميل الليلة . أليس كذلك ؟ »

فقال باربر في صوت أجش « ليلة سعيدة بأسيدتي » متجاهلا تعليقها على حالة الجو

فقالت جوليا « كان مستر ريفن يعاونني على طرد خفاش من حجرتي »
— « خفاش ؟ أجل بأسيدتي »

قال ذلك في لهجة لا تبحث على الاطمئنان فسألت « هل سادته في الردهة ؟ »
— لا سيدتي . لم أصادف خفاشا الليلة .

إذن فلا بد أنه أقفلت من النافذة
— أجل . سيدتي
— لا يهم والتفتت إلى وقالت « آسف أن أزعجتك . سبرافتك باربر إلى غرفتك . تسمح يا باربر ؟ »
— نعم سيدتي
— ليلة سعيدة إذن !

« ليلة سعيدة » وأنصفت « وأظن الأفضل أن تحتفظي بيوتو . وسيكون أسعد حالا . » وعدت في أثر باربر إلى غرفتي ملتزما المذود . والظاهر أن الرجل كان يميل بطبيعته إلى العبوس والانتقاض فلم يجازني

الصوان ، حتى إذا ما لجأت إلى فراشي جمل يتخبط من حولي . »

— إنى أعرف خير طريقة للتخلص من الخفافيش . لقد قرأتها في كتاب .
— أى كتاب ؟

— لا أذكر ، ولكنه يقول إذا أطفأت الصباح ومكثت ساكنا لحظات حتى يسترجع الخفاش ثمنه بنفسه وفتحت الباب تحاة فإنه يخرج إلى الردهة
— وهل يليق ذلك ؟

— يليق .
— أقصد هل يرضى والدي أن نطلق الخفافيش في أرجاء البيت ؟
— ومن يذريه ؟
— حسن . فلنحاول .

فالت ذلك في شيء من التردد . فأطفأت النور ووقفت إلى جانب الباب في ظلام حالك وسكون شامل نحو نصف دقيقة ، حتى حبل إلى أن الخفاش قد أمهل بما فيه الكفاية ليخرج من مخبأه ، ثم تلمست أكرة الباب وأدبرتها بسرعة ، وفتحته على مضراعية ، وإذا برجل بدين متوسط السن ذي لحية يقف في الردهة ، حاملا مصباحا في يده ، وقد بدت على وجهه أمارات الدهشة ، فتولاني الارتباك وأحسست أن الموقوف يتطلب شيئا من الإيضاح

في حديث ولذلك كرهت مفاخرته في شيء
وأدركت من مملكته أنه يميل إلى
إساءة الظن بتصرفاتي ، فساءلت نفسي هل
من السكينة أن أهبه نصف جنبيه مثلاً لعلني
أضيق سكوتة ؟ غير أن إحساساً داخلياً
حقزني إلى الإحجام عن التورط في هذه
الخطوة الطائشة ، وعدلت عن محاولة رشو
الرجل الموقر . ولما تركني عدت إلى فراشي
مؤملاً خيراً ومراً ، أما المنياب بوتو ، وأطفال
النور مرة أخرى

واستغرقت لئوى في سبات عميق . وبينما
كنت في وسط حلم شائن زاحراً بالحياة أقذفه
حياة جوليا من هجمة حيوان ضار ضخم ،
إذ حدث ما أبهظني فجأة ، فأهب من نومي
على طرق الباب

فقلت للطارق : « ادخل » بصوت نيم عن
شيء من العنجر لأنني كنت قد بلغت في
حلمي غاية الانفعال إذ ألتفت في الحلم جوليا
بنفسها في غير ما تحفظ بين أحضانني
وفتح الباب وقد أفتت ، ووقمت عيني على
الجمال الحبيب ، فانبعثت من قلبي سيحة فرح لم
يكن في وسعي أن أكتسبها

وقالت جوليا في خمر وقد ارتسمت على
فها ابتسامة رقيقة تحمل أبلغ آيات الاعتذار
« آسف أن أوقظك مرة أخرى ، ولكن
الخفافاش نفسه قد عاد إلى حجرتي »

فسألت « وأنت أنت ؟ »
— « وأنت ؟ » وكبرت الكلمة في
كثير من الحلق
فسارعت إلى الإيضاح قائلاً « أقصد
هل أنت وأنت من أنه الخفافاش نفسه وليس
آخر يشبهه ؟ ربما كان توأماً له أو زميلاً
على سا كلته ، فما أشد الشبه بين الخفافيش
كلها تعالين ، وإذا لم تفحصها جيداً .. »
فقاطعتني قائلة : « است أدري شيئاً
عنها ، وكل ما أعلمه أن خفافاشاً في حجرتي
وأكون ممتنة جداً إذا ... »

فقلت : « طبعاً . أمهليني لحظة حتى
أرتدى ثوبي »

وبلغنا حجرة جوليا للمرة الثانية في
تلك الليلة فلم نعثر على شيء . وكان بوتو قد
انتهز فرصة غياب سيده فقفز إلى فراشها
وأستد رأسه إلى الخدة متظاهراً بالنوم
فرجرت جوليا قائلة « أنزل فوراً يا بوتو
فأنت تعلم جيداً أن هذا الفراش ليس لك »
فزل بوتو متشاقلاً كأنما قد جرحت
كبريائه ، وشغل نفسه بارتشاف قطرات
من الماء

قالت جوليا « غريب أمر هذا الخفافاش
لا بد أنه هنا في مكان ما »
« إن خطتنا القديمة أفلحت كثيراً ، فلم
لا نعيدناها ؟ »

— لم لا ؟

ومرة أخرى أطفأت النور وكتمت
نفسى وأصنيت . ولا أدري أهو مجرد وهم
أم أنى سمعت حفيف أجنحة ؟ وفى لمح
البصر تلمست أكرة الباب وانترمتها
بعنف شديد ، فوجدتني ملقى على الأرض
والقبض فى يدي والباب مغلقا كما كان

فسأت جوليا « ماذا نفعل ؟ »

قلت : « انحللت الأكرة »

فقلت فى ضجر : « أعدها إلى مكانها
— أرجوك »

فقممت إلى القفل أحاول أن أعيد
الأكرة إلى حيث كانت ، وقلت أطمشها :
« لحظة واحدة ! إني أبذل قصارى جهدى »
والظاهر أن ارتبا كى كان قد بلغ حده
فذهبت جهودى عبثا ، ولما أضأت الحجر
عرفت أنى دفعت قضيب الأكرة أكثر
من اللازم بحيث صار من المستحيل تحريكها
وسأت جوليا « كيف الحال ؟ »

فأجبت « ليست على ما يرام . فإني

لا أستطيع مطلقا فتح الباب »

— ولكن يجب أن تفتحه

— آسف . فذلك مستحيل

— ولكن ألا تدرك أنك لا تستطيع

أن تقضى الليل هنا ؟

— بطبيعة الحال لا أريد ذلك

وأدركت فوراً ما فى هذه العبارة من

جفاء ، قلت أصحح هفوتى « أقصد أنى
أعلم أنى لا أستطيع ، ولكنى لا أرى
مخرجا »

وأخذنا نعالج الباب بكل ما وقع فى
أيدينا من أدوات ، ولكننا لم نوفق ، وصار
حتماً أن تستسلم لمسيرنا

قلت « أرجو أن تلجئنى إلى فراشك

قبل أن تصابى يبرد . يمكننى أن أستريح

على هذا الكرسي حتى يأتى من يخرجنى »

وحاولت أن أظاهر بشئ من المرح وعدم

الاكتراث ، وأنا أبعد الناس عن المرح

وعدم الاكتراث

ولابد أن الساعة كانت حوالى الثالثة

صباحا ، إذ كان البرد قارسا ، فأصرت

جوليا على أن أتدثر وعادت مضطرة إلى

فراشها وأطفأت النور

وكان الموقف حرجا ، ولكنى شرعت

أسرى عن نفسى ، وأنشبه بفارس من

فرسان البطولة ، تضطره ظروفه إلى السهر

طول الليل . وكلما تحركت أحدث الكرسي

صريرا ، فالترمت السكون كى لا أوقظ

مرافقتى . على أنها لم تنم ، إذ سمعتها تقول

« أوه ! دعنى أرجوك ! » ثم أردفت « أوه !

أهو أنت يا بوتي ! » والظاهر أن الكلب

كان قد قفز ثمانية إلى فراشها

وتسلل إلى الخارج حينما يدرون ظهورهم
إليك «

ظهورهم ؟

— جرت العادة أن تأتي الخادم ومعهما
وصيقتي حاملة كوب الشاي «

— أوه ! « ففت بها في غير مرح
لأن الفكرة لم تبد سهلة ميسرة ، والفراق
دونه مختلف المعانيات

على أن الخطلة نجحت نجاحا فاق
ما كنت أومل ، والفيت نفسي تسلل في
خفة إلى الردهة وأسرع إلى حجرتي مرتاح
البال

ولكن هذا الارتياح وا أسمعاه ! لم
يدم إلا لحظات . فما أن فتحت باب غرفتي
حتى شاعدت منظرا أشاع الرعب في أوصالي .
فقد كانت أشبه الأشياء بغرفة من غرف
فرسا احتلها الألمان ثم جلوا عنها ، فلا ثاث
مقتار ، ومحتويات الأدراج مبعثرة ، وفي
استطاعتك أن تتصور شعوري وقتئذ حين
رأيت باب الخزانة مفتوحا والخزانة نفسها
خاوية

ولم يكن الأمر في حاجة إلى بوليس
سري يكشف عما حدث . فقد اقتحم
للصوص النافذة ، وأحدثوا بالديناميت نفرة
في الخزانة . وهذا يفسر الانفجار الذي
عزته جوايسا إلى سارق الصيد المتطفلين ،

واستدارت ، وأنت أنه خافته ، ثم
انظمت نفسها فجسها أغفت ، وحاولت
أنا الآخر أن أغفر قدر ما يسمح حالي ،
غير أنني سمعت صوت انفجار مكتوم ،
فتنبهت وصححت زغمي : « ما هذا يا إلهي ! »
وأمكنني أن أرى على ضوء الفجر جوليا
مفتوحة العينين

فسألت : « هل وقع شيء ؟ »

فأجبت : « أظنني سمعت حلقا ماريا »

فقلت : « سارقو الصيد على ما أظن .

لا تحمل بهم »

فاستلقيت على كرسي ، ولكن سرعان
ما أدركت أن النعاس قد بات أمرا لا محل
له ، فالطيور قد أخذت تستيقظ وتقفز على
البساط الأخضر ، والسماء الرمادية اللون
قد أخذت تشوبها حمرة ، وبمنظرة إلى الساعة
الصغيرة الموضوعة على المائدة بجوار فراش
جوليا ، تبين أننا في الساعة الخامسة وعشرين
دقيقة

فقلت وكأنني بها نقرأ أفكارى « بقيت
ساعتان . فهم يوقظونني عادة في منتصف
الساعة الثامنة »

فتساءلت : « وكيف الخلاص من هذا
الحرج ؟ »

فأجبت : « لقد فكرت في الأمر .
وأرى أن تحتجى خلف الباب حينما يدخلون

فبدأت « عفوا سير بورويك ... »
فصاح « يا الشيطان ! من هنا » واستدار
فخاة فارتلق النوسي من يده وأحدث جرحا
طويلا في دقته

وقلت آسفا « أخشى أن تكون قد
جرحت نفسك »

فسأل غاضبا « ومن يكون المخطئ في
هذا ؟ ألا تستطيع أن تطرق الباب قبل أن
تدخل ؟ ماريا ! » وقصد إلى باب حجرة
زوجته وصاح « ماريا ! ماذا صنعت بعدما
الجس الملعونة ؟ »

— لحظة باعزري . سأحضرها

لك

وجاءت السيدة تراوت فأدهشها وجودي
وسألت

« ماذا حدث ؟ هل أصاب مستر بيغن

شي ؟ »

فقال زوجها « كلا . قبحه الله . كاد
أن يجعلني أذبح نفسي . هذا كل ما في
الأمر ! »

فعدت أقول « معذرة . ولكن ... »

— ماذا ؟

— إن آسف . ولكن ينبغي لي

أن أخبرك ..

— تخبرني لماذا ؟

— حدثت سرقة بسيطة

واغتنم اللصوص فرصة عياني وسرقوا حلي
مضيفتي ومجموعة الجواهر المشهورة التي
قضى سير بورويك زهرة حياته في جمعها
والحق أني لم أقع طول حياتي في مثل
هذا الموقف المعقد . وكيف الخلاص من
هذا المأزق بطريقة تحفظ على كرامتي
وشرفي ؟ إذا قلت الحق ، فمن يصدقني ؟
وإذا ادعيت أنني كنت غارقا في سبات عميق
في فراشي فمن يصدق أن الديناميت
لا يوقظني ؟ وفكرت في أن أقيد نفسي بحبل
وأضرب رأسي بآلة حادة كيما يجدني أول
قادم ملقى على الأرض بلا حراك . ولكن
هذه الخطة لم تكن ميسورة التنفيذ ، فلو
قيدت نفسي بحبل الجرس فكيف أديق
رأسي ؟ ولو بدأت بديق رأسي وأنمي على
فكيف أقيد نفسي ؟

وبعد استعراض الموقف من جميع
وجوهه لم أجد بدا من الالتجاء إلى ماضي
وإخطاره بالقصة كلها والاستسلام له يتصرف
في أمري كما يشاء .

واستجملت ما بقي من شجاعتي ،
واجترت الدهاليز إلى حجرة سير بورويك ،
وطرقت الباب . ولما لم يجب أحده فنحت
الباب ودخلت

وكان مصيبي واقفا أمام المرأة يخلق دقته
والصابون قد غطى أذنيه فلم يشعر بوجودي

- سرقة ؟
— أجل .
— سرقة ؟ أين ؟ ومتى ؟ وماذا
تقصد !
— في حجرة نومي
— يا إلهي ! أقصد الخزانة ؟
— أجل
— وجواهرى !
— وجمارينى !
واندفع ببر بورويك إلى الدهليز وهو
يصيح
« جمارينى ! جمارينى ! »
وتبعته أنا وزوجته حتى بلغنا الغرفة
الخربة وكان مننجز وباربر واثنان من الخدم
قد تجمعوا في المدخل . فأزاحهم سير بورويك
من طريقه وشرول إلى الخزانة المفتوحة
وألقى عليها نظرة سريعة ثم التفت إلى
مننجز وسأله
— هل أخطرت البوليس ؟
— كنت على وشك أن أفعل
إذن ، أخطرهم في الحال .
— أمرك يا سيدى
واحتفى مننجز والتفت مضيقا إلى
الحارس اللين وسأله « كيف حدث هذا
يا باربر ؟ »
— « لا أدري يا سيدى . وربما يستطيع
هذا السيد أن يبيننا بشئ » وأشار إلى .
فقلت متلعنا « أكيد . بطبيعة الحال .. »
فقال مضيقا موجه الكلام إلى « ماذا ؟
لقد تمت هنا ليلة أمس على ما اعتقد ؟ »
— لم تنفل عبنى لحظة
— لقد شغلت هذه الحجرة
أجل ! شغلها من الناحية
النظرية
— إذن نخبرنا ! كيف اقتحمها
الصوص ؟
— من النافذة على ما أظن
— ألم تسمعهم ؟
— لا . لا أستطيع أن أقول إنى
سمعتهم
فقات السيدة تروات « ربما هجموا
عليه وضربوه ضربة أطارت صوابه »
فقال سير بورويك « كلام فارغ .
لا يستطيع شئ أن يطير صوابه . والآن
يا يمين خبرنا ، لقد كنت هنا فإذا حدث ؟
وماذا فعلت حينما أقبل اللصوص ؟ »
— الواقع أنى لم أكن هنا
— لم تكن هنا ؟
وسألت السيدة تروات « وأين كان
يوثو ؟ »
فأجبت « كان هو الآخر نائما في
الخارج »

« كما تشائين » ووجه الخطاب إلى
قائلا « إن أضيق وقتي في وسفك بالصفات
التي تستحقها . والقطار إلى لندن يقوم في
الساعة ١٠.٣٥ . ولكن قبل أن تذهب ،
هناك شيء واحد أصر على معرفته . في
غرفة من كنت ؟ »

فقائلة « قايلا » أرفض أن أخبرك .
فأنا رجل شريف »

« رجل شريف ! » ثم أراح
زوجته جانبا وساح بأعلى صوته « أخبرني
باسم الحاشوقة النعسة قورا ، وأقسم أنني
سأطردها من البيت في الحال . »

فتدخلت زوجته قائلة « من المؤكد
أنها ليست السيدة إيرثنول ولا السيدة
تشيبي الكينة ولا أليس جالوم »
وقال هو « والمجوز وندلشام
مستبعدة »

فقالت السيدة تروات « إذن لم يبق
إلا الأوانس »

فهجم سير بورويك على كالنمر صائحا
« لا أظنك زعم ! إذا جاز أن يحدث ذلك
في هذا البيت ! فإني أقسم أن أزوجهك من
الفتاة غدا ! »

قلت « وليكن ! فلا مانع عندي ! »
وبعد كان بيغن يقص على هذه النعسة
الطويلة إذا به يتوقف فجأة ، وينظر في فخار

فنظر إلى سير بورويك نظرة قاسية
وقال « هل لي أن أستنتج أنك لم تقض
الليلة في حجرتك ؟ »

قلت « لا . أقصد نعم .. أي أني ...
فالتفت مضيقا إلى الخدم وأمرهم
بالخروج وقال في نجيحة ما كنت أظنك في
أي ظرف آخر » والآن يا سيدي ! يا صديقي
الصغير ! أكون ممثلا لو أخبرني كيف
قضيت الليل »

فأجبت في بساطة « كنت أصيد
الحفافيش »

— لا تحاول أن تسخر مني
يا سيدي !

— ما بي من حاجة إلى ذلك .
أقصد أن لا أسخر

— هل أفهم من ذلك أنك لم تشغل
حجرتك ؟

— أجل ! لك أن تفهم الأمر على
هذا الوضع

— وأنت قضيت الليل في حجرة
أخرى ؟

— أجل ! أظن ذلك
فالتفت إلى زوجته وقال « ماربا ! أرى

الأوفى أن تتركينا »
فقالت وقد غلب عليها الحياء « أفضل

أن أبقى . »

إلى سيدة بارعة الجمال تقود طفلتين نوأمتين « شي »
 تبلغ كل منهما الرابعة من عمرها فألححت
 عليه أن يتم قصته ، ولكنه أعرض عني ،
 وأسرع يستقبل السيدة وطفلتينها وقال
 « تعالى يا جوليا ! ههه أدت الطفلتان
 الصلاة ؟ » ثم التفت إلى وقال « ألا تعرف
 زوجتي ؟ جوليا ! هذا صديق قديم »
 وتصاحتها وقالت جوليا « ما أظننا
 تقابلنا قبل اليوم »
 فأجبت « ولكن أعرف عنك كل
 شيء »
 فسأت زوجها ضاحكة « ماذا كنت
 تقص عليه ؟ »
 — لا شيء يا حبيبتى
 ثم التفت إلى الطفلتين وقال « هيا بنا
 نطعم الخرافيش »
 فقالت جوليا « كم يحب برسى
 الخرافيش ! »
 فقالت « لا أعجب »
 أحمد حلمي

ابتداء من العدد القادم

تقرأ في كل عدد قصة من أروع
 القصص البوليسية الحديثة